فاعلية المكان الثقافي في الخطاب القصصي لفاتح عبدالسلام "عين لندن أنموذجا"

د.علي عواد عبد الله/

المديرية العامة للتربية في محافظة نينوى

تاريخ الاستلام : 12-03-2021

تاريخ القبول : 23-03-2021

ملخص:

تحاول هذه المعالجة النقدية أن تستحث التأويلات والرؤى التي تبحث في حقيقة الصراع الثقافي المعرفي الذي تعيشه المكونات السردية مع المكان بوصفه حاضنةً ثقافية معرفية، لذلك فإننا بصدد نصوص غنية جداً في تجاذب أطرافها ثقافياً، وتماسك حدودها معرفياً، ولعل المجموعة القصصية (عين لندن) واحدة من الأعمال التي تراهن على الحظوة الثقافية الكبيرة التي يتكئ عليها عبدالسلام في تعزيز الموقف الثقافي للمكان، ليكون المكان شكلا مهماً من أشكال الصراع الثقافي والمعرفي بين الشخصيات من جهة والمكان الذي يحتضنها من جهة ثانية، لتنشطر المقاربة على محورين، الأول (المكان وثقافة الاستقطاب) إذ يسهم المكان ثقافياً في تعزيز قدرة الشخصية على السعي للاندماج في المحيط الثقافي العام عبر إطلاق صور التجاذب الثقافي الذي يزيد من فرص التعايش النفسي والاجتماعي بين الإنسان والمكان ومن ثم الثقافة، ويتم في المبحث الثاني تناول (المكان وثقافة الاستبعاد) ومحاولة إيجاد الأثر الثقافي الطارد الذي ينفر الشخصية من المكان ويجعلها تعيش في حالة من التنافر والتباعد لتعزز الامتداد الفكري المعهود بعدم اندماج الشخصية المغتربة في المكان، وخلُص الموقف البحثي إلى الإيمان بطبيعة العلاقة التي تجعل المكان ثيمة ثقافية عليا تفرض سلطتها الكونية على بنية النص وترسم حدود ابتدائه وانتهائه انطلاقا من الأثر الثقافي الفاعل.

الكلمات المفتاحية: المكان، الثقافة، السلطة، السرد

"

The Effectiveness of the Cultural Place in Fateh Abdel Salam's Narrative Discourse "The London Eye as a Model"

Dr. Ali Awad Abdullah General Directorate

of Education in Nineveh Governorate

Receipt date: 2021-03-12
Date of acceptance: 2021-03-23

Abstract:

This critical treatment tries to stimulate interpretations and visions that search for the reality of the cognitive cultural conflict that the narrative components are experiencing with the place as a cognitive cultural incubator. Therefore, we are dealing with very rich texts that attract their parties culturally, and the cognitive coherence of their boundaries. The works that bet on the great cultural favor that Abdul Salam relies on in strengthening the cultural position of the place, so that the place is an important form of cultural and cognitive conflict between the characters on the one hand and the place that embraces them on the other hand، The approach is divided into two axes, the first (place and the culture of polarization), as the place culturally contributes to enhancing the personality's ability to seek integration into the general cultural environment by releasing images of cultural attraction that increases the chances of psychological and social coexistence between the person and the place and then culture, and the second topic deals with (The place and the culture of exclusion) and the attempt to find the expelling cultural effect that alienates the personality from the place and makes it live in a state of disharmony and divergence in order to reinforce the intellectual extension known to the non-integration of the expatriate personality in the place. The structure of the text and delineate the boundaries of its beginning and its end based on the active cultural impact.

keywords: Place, cultural, authority, narration

المقدمة:

تبقى للمكان فاعليته الثقافية المهمة التي تلعب دوراً كبيراً في تأسيس العلاقة المثلى التي تربط مكونات النص الأدبي عموماً والسردي على وجه الخصوص، فثمة ما يمكن أن يشغله المكان على المستويات كافة، نفسياً واجتماعياً وبنيوياً وتركيبياً، غير أنه لا يكتفي بهذه الأصعدة إنما يحاول أن يتعداها إلى الفاعلية الثقافية التي تسهم في تشذيب العلائق السردية العامة بين جميع المكونات السردية، وتأتي أهمية متابعة المكان ثقافياً من كونه على تماس مباشر مع مصدر المرجعية الثقافية (الشخصية) وناقل هذه المرجعية الثقافية (الزمن) ومحرك هذه المرجعية الثقافية (الحدث) لهذا فإن الدور الثقافي الذي يلعبه المكان هنا مهم جداً في تأطير تلك المفاهيم وإخراجها إخراجاً ثقافياً معرفياً موجهاً.

لم تناقش أغلب الدراسات السابقة التي تناولت المكان هذه النقطة الجوهرية التي أجدها مهمة إلى الحد الذي يجعل المكان محرراً من قيوده الأكاديمية التي فرضت عليه قوالب جاهزة بين الانفتاح والانغلاق والألفة والعداء والخصوصية والعموم، لقد أصبحت ضرورة تلقي المكان عبر سياقاته ومراوغاته الثقافية مهمة جداً، لنكون إزاء مقاربات جديدة للمكان تتنوع وتتبدل على وفق طبيعة العلاقة التي تحكمها مع الشخصية، وتصبح الفرصة مواتيةً بعد ذلك للتأكيد على أهمية التناغم المكاني من منطلقات ثقافية مع باقي المكونات السردية.

إن قراءة نصوص فاتح عبدالسلام تفتح المجال أمام تأويلات شتى تستقي صورها ورؤاها من حقيقة الصراع الثقافي المعرفي الذي تعيشه المكونات السردية مع المكان بوصفه الحاضنة الثقافية المهمة لتلك القيم والرؤى، لذلك فإننا بصدد نصوص غنية جداً في تجاذب أطرافها ثقافياً، وتماسك حدودها معرفياً، ولعل المجموعة القصصية (عين لندن) واحدة من الأعمال التي تراهن على الحظوة الثقافية الكبيرة التي يتكئ عليها عبدالسلام في تعزيز الموقف الثقافي للمكان، عندما يعرض صورة الإنسان المؤطرة بنظم وسياقات مرجعية متعددة لتكون المملكة المتحدة أو المهجر أو لندن على وجه التحديد مكاناً يختزل التجارب الإنسانية المتجذرة في الحضارات غير العربية وتعكس التجربة الإنسانية الحية التي يعيشها الإنسان العربي في المهجر، ليكون المكان شكلاً مهماً من أشكال الصراع الثقافي والمعرفي بين الشخصيات من جهة والمكان الذي يحتضنها من جهة ثانية.

يقوم هذا البحث على مبحثين اثنين: الأول (المكان وثقافة الاستقطاب) إذ يسهم المكان ثقافياً في تعزيز قدرة الشخصية على السعي للاندماج في المحيط الثقافي المكاني العام عبر إطلاق صور التجاذب الثقافي الذي يزيد من فرص التعايش النفسي والاجتماعي بين الإنسان والمكان ومن ثم الثقافة، ويتم في المبحث الثاني تناول (المكان وثقافة الاستبعاد) ومحاولة إيجاد الأثر الثقافي الطارد الذي ينفّر الشخصية من المكان ويجعلها تعيش في حالة من التقاطب والتباعد لتعزز الامتداد الفكري المعهود بعدم اندماج الشخصية المغتربة في المكان، ومحاولتها الدائمة للولوج إلى مديات المكان الأم ومحاولة إحلال قيمه الثقافية والفكرية والإنسانية، وفي هذا المجال ستتمثل السطوة الحقيقية للمكان عندما يقود الشخصية بعد نفاد حلولها إلى ما يعرف بالاغتراب، لكنه ليس اغتراباً مكانياً قدر كونه اغتراباً ثقافياً خاصاً يُشعر الشخصية بإفلاسها المعنوي والوجودي أمام تجدد وحدة المكان عبر استناده إلى مضبطته المرجعية الخاصة التي أسسته ثقافيا وفكرياً، غير أن الخطى اللاحقة لفكرة الاغتراب الثقافي للمكان ستكون عبر انزياح الشخصية وفتور تفاعلها مع المكان المهاجر إليه ومن ثمة ستتقلص فرص التفاعل والتداخل إلى أدنى مستوياتها الفكرية والمعنوية.

من الضرورة في مكان ونحن نقارب نصوصاً قصصيةً للكاتب والروائي العراقي فاتح عبدالسلام عبر منطلقات مكانية ثقافية عامة أن نناقش المصطلحات والمفاهيم التي وردت في العنوان، أملاً في الوصول إلى إحاطة معنوية دلالية متكاملة تجعلنا قادرين على استقبال معطيات البحث بانتظام واتساق، ما يهم هو التعرف على المفهوم الاصطلاحي للمكان الممتد إلى مفاهيم أخرى متعلقة بالمكان تستند إلى مرجعيات ثقافية وفكرية وسياقات نفسية عامة، فقد شغل مصطلح المكان اهتمام الكثير من النقاد والمفكرين والفلاسفة عبر التاريخ، وتعددت تسمياته حسب وجهة نظر كل ناقد من فضاء وحيز معين، وأصبح يكتسب مفاهيمَ متنوعة على وفق اختلاف الضوابط التي تهتم بتعريفه.

ويمكن القول إنّ "العلاقة بين الإنسان والمكان من هذا المنحنى تظهر بوصفها علاقة جدلية بين المكان والحرية، وتصبح الحرية في هذا المضمار هي مجموع الأفعال التي يستطيع الإنسان أن يقوم بها"(قاسم ،2002: ص 45)، وهناك إشارات كثيرة إلى اختلاف أنماط المكان وتعدد صوره وتعدد أشكاله، فالمكان الخاص هو المكان المحتضن للإنسان الذي يشير إلى قدرته إعطاء الحرية المطلقة في التفاعل والتعايش مع المحيط الإنساني الذي يتواجد معه (لوتمان، 1988: ص 62)، وهذه المفاهيم تعطي انطباعاتٍ كلية على قدرة المكان على التنوع والتفرع حتى على مستوى المفاهيم والأفكار، فضلا عن قدرته الكبيرة في صناعة

الأفكار والقدرات وصناعة الثقافات التي من شأنها صناعة الهوية الخاصة بالمكان فيما بعد والتي ستستطيع استكمال حلقة التواصل والتعاضل مع الإنسان من جهة وتاريخه الفكري والوجودي من جهة ثانية.

ويشكل المكان نقطة تواصل جوهرية مع الإنسان، ويقيم معه جدلية متجذرة في عمق الحياة الإنسانية، ليختزل عبر الوعي بالأمكنة كلها انطلاقاً من الأمكنة الصغرى والكبرى المألوفة وانتهاء بالمكان المطلق (الكون)، (صلاح، 1998: ص15)، الإنسان يرتبط بالمكان، ووجوده في المكان يحتوي المكان بوعيه وإدراكه إياه، بفكره، وعواطفه ونفسه، فقد بات واضحا أن المكان يرتبط جذريا بفعل الكينونة للعيش والوجود(النصير، 1986: ص64) ، إذن صار لزاماً علينا أن نفهم المكان ليس في إطار معزول خالص إنما في حالة من التواشج والتناغم الكلي مع الإنسان فالأخير يسهم في صناعة الثقافة والوعي وهو نفسه يحول هذه الثقافة وهذا الوعي إلى طابع فكري يبحث عن العمق المكاني الذي يستقر فيه، لذا فإن المكان هو محيط ثقافي راكز يجسد صورة الثقافة بأوسع أشكالها، ومن ثم ستسهم هذه الثقافة في خلق نوع من التوازن المكاني.

المبحث الأول

المكان وثقافة الاستقطاب

تنمو الفاعلية الثقافية للمكان بشكل ملحوظ في النصوص التي تتكئ على السياقات والنظم الثقافية والفلسفية والمرجعية العامة، فهي تتيح المجال أمام صناعة علاقة جدلية بين الشخصية بوصفها مركزاً قيمياً ثقافياً عاماً، حتى شغل "المكان منذ فجر التفكير الإنساني والفلسفي ظاهرة على جانب كبير من التعقيد في المفهوم والدلالة تضاربت فيها الآراء واختلفت فيها التوجهات ولا ريب أن البعد الفلسفي لظاهرة المكان قد أسهم في طبعه بطابع الإشكالية على الصعيدين الفلسفي والأدبي"(الأسدي، 2013: ص 13) والمكان بوصفه إطاراً محتضناً لتلك المراجع والقيم الفكرية، من هنا تأتي ضرورة تلقي المكان بإيجابية مطلقة، بل أن هناك ضرورة ملحةً تدعو إلى عدم تناول المكان بمفرده معزولاً عن سياقاته الفكرية العامة، بل هي ستكون حتماً جزءاً لا يتجزأ من نظامه التحليلي والتركيبي العام.

فضلا عن ذلك فإن درجة التقارب والانجذاب المكوناتي بين المكان والشخصية ستصل إلى أعلى المستويات إذا ما افترضنا سياقاً مكانياً مغايرا، بمعنى أن تحاول الشخصية اللجوء إلى مكان ثانٍ يمثل المنحدر الإنساني الجديد، عازفة عن تقبل

المكان الأول، فالهجرة والنزوح والهروب من الأمكنة الرئيسة إلى أماكن أخرى تجدها الشخصية أكثر انسجاماً لتطلعاتها الفكرية والثقافية سيجعل الشخصية تعقد نوعاً من التناغم الثقافي عطفاً على خيوط التأثير والتأثر والتحلل الفكري في المكان الثاني.

وعبر الخطاب القصصي لفاتح عبدالسلام ومجموعة (عين لندن) بالتحديد سيكون بوسعنا التأكد من حتمية تلك العلاقة المفترضة بين صور المكان والإنسان، فهذه المجموعة تتميز بانتخابها أماكنَ متباينةٍ بين الشرق والغرب في التدليل والتخييل، ما يسهم في تنامي صورة التمايز والمقاربة والمقارنة بين الأثر الثقافي للمكان، فمدينة لندن أو أي مدينة غربية أخرى تتكئ على منظومة ثقافية متأصلة، وفي حال حلول شخصيات شرقية على هذه المدن فإنها ستواجه بطبيعة الحالة فرصا كبيرةً لمحاولة التحول الثقافي الذي يعقب سلوك الشخصية بعد مضي وقت على استكانتها داخل حياض المكان، لذلك فإن أول صور الاستقطاب الثقافي للمكان هو التحول الثقافي الذي يطرأ على الشخصية ويحاول أن يعمل بطريقة النسخ والاستبدال القيمي، ثم ينتقل بعد ذلك إلى تحولٍ سلوكي عام.

التحوّل الثقافي القيمي:

من الطبيعي أن تتكئ الشخصية على مرجعيات فكرية تحدد طبيعة الهوية الثقافية لديها، لكن من غير الطبيعي أن يتم زج هذه الشخصية في بيئة مكانية لا تتأقلم والمراجع الفكري والثقافية التي تستند إليها الشخصية، لذلك سنكون إزاء تحول ثقافي قيمي تخضع له الشخصية وتحاول عبره سلطة المكان أن تنسخ القيم المرجعية والثقافية، فتتم إعادة برمجة النظم الفكرية على وفق المكان الحديث.

لذا فإن الانتقال من المكان المعاش إلى المكان الفني هو تحول من عالم الحياة اليومية بحسيته وأشيائه وظواهره المتنوعة والمختلفة إلى عوالم فعّالة من التخييل عبر لغات مختلفة، علامات لغوية ألوان، أصوات، صور ، من عالم نحيا ونعيش فيه بهدوء ودعة حيث الخبرة المباشرة (الحدسية) بالأشياء إلى الوعي الجمالي بهذه الأشياء ودورها ودلالتها ووظائفها، وبكلمة أكثر دقة نكون إزاء صورة أخرى للعالم للمكان المعاش(عن: الشيخ عبوش، 2019:ص 71)، ومن صور تلك التحولات الثقافية للشخصية ما نراه في شخصية المتظاهر في قصة (الشظية لا تزال في ساقي) "وفي لحظة فرّت من زمن عميق صرختُ وأمسكتُ بشرطي من كتفيه فدفعته بقوة قذيفة وانزاح معه شرطي آخر وتدحرجت خوذة أحدهما وكأن ثلمةً حدثت في سور

الشرطة وتدفق منها المتظاهرون المتحمسون، كماءٍ كان محتبساً، اختلط كل شيء وبدأ المتظاهرون يفرّون من موجة من رجال الشرطة يحملون دروعاً عملوا منها حائطاً معدنيا عالياً .. لكنني اندفعت على عكس اتجاه الفارين وأمسكت بشرطي لم يكن يحمل درعاً وضربته بعنف على وجهه فكادت خوذته العالية تنخلع، وحين تقدم إلي شرطي آخر سددت إليه ضربة أخرى، تاركاً الأول وأطبقت على رقبة الثاني، كنت أهتف بقوة وأعصر رقبته بقوة أكبر" (عبدالسلام، 2011: ص 42، 43)، فقد أمضت الشخصية سنوات متعددة في الغربة تحاول أن تتجذر على وفق المعطيات الثقافية والحياتية الجديدة، وإذا ما تم التفتيش عن الأسرار التي صنعت من الشخصية شخصية مهاجرة تبحث عن ذاتها، سنجدها مجتمعةً في عدم احترام المؤسسة للإنسان أو المواطن، ففي العراق ليس هناك حق للتظاهر أو إبداء الرأي أو ليس هناك مجال للحرية والتخاطب وتبادل الآراء، وهذه مسلمة ثقافية تعكس مدى الرجعية التي تتبناها المؤسسة الحاكمة، والخطير في الأمر أن هذا التطبيع انتقل من المؤسسة إلى الأفراد حتى أصبح الخوف ثقافة، وعدم الوعي ثقافة، والرضا بالظلم ثقافة، والقبول بالتسلط والدكتاتورية ثقافة، وكل شخص يحاول أن يخرج عن هذه الأنماط الثقافية التي تصدرها السلطة سيكون مصيره معروفاً عندما يجدوه معلقا في إحدى المشانق العامة.

بعد مغامرة الهجرة استطاعت الشخصية أن تتأسس من جديد وتحاول أن تتناسخ مع القيم الثقافية الجديدة، بين المملكة المتحدة والعراق، ليكون المكان الجديد المحرك الرئيس الذي حوّل الشخصية ثقافياً من مجرد رقم شعبوي إلى عنصر ثقافي متمرد يبحث عن الحقوق والواجبات، ويمارس حقه الدستوري بحرية مطلقة، حتى وجدنا الشخصية تتغلب على طابعها الثقافي القديم بإرادة حية وتزج نفسها في المحيط الثقافي الجديد، فالمكان أسهم في الوقوف إلى جانب الشخصية وحاول أن يستقطب توجهاتها الثقافية ويستثير أطرها المرجعية المخبوءة لتتجدد بالظهور في الحاضنة المكانية الجديدة.

ومن الأمثلة الأخرى التي تمثل حالة التحول الثقافي والفكري تحت تأثير سطوة المكان وفاعليته في استقطاب الشخصيات ما نجده في قصة المعول الهندسي (عين لندن) وكيف استطاعت الشخصية أن تتأسس وفق منظور مكاني بحت، فهو المهندس الذي فشل في الحصول على فرصة للعمل في تجربة الغربة، ودخل في نقاش حميم مع الفتاة أثناء صعودهم إلى حجرة عين لندن، وبدأ بالتخطيط والتقسيم والتفريع، فهو استحضر كل القيم الهندسية والعمرانية التي من شأنها بناء البلدان وتأسيسها على وفق أنظمة عالمية حديثة:

"قلت: كنت أريد أن أتأمل لندن من فوق وأفكر بالذي يمكن للمرء أن يفعله لتغيير هذا الجانب الضيق من مبانيها

قالت: ليست ضيقة إلى هذا الحد. ربما احتجت لتحقيق أفكارك إلى طائرة

قلت: ربما فعلاً أنظري في هذه الاسطوانة فيها تصاميم هندسية لمشاريعَ يمكن أن تغير وجه لندن"(عبدالسلام، 2011: ص 20) ، يمكننا في هذه اللحظة أن نتلقى لندن بوصفها مكاناً ثقافياً عمل على استقطاب الطاقة الفكرية والعمرانية للمهندس العراقي المغترب، فهو على أهبة الاستعداد للعمل وتقديم الخدمات الميدانية، إذ استطاع المكان وفق منظور ثقافي متمثل بالإيمان بالقدرات الخاصة وفسح المجال للتغيير والتأسيس من جديد أن يطلق العنان لمهاراته الهندسية والفكرية والثقافية، فلندن مدينة الضباب وحاضنة الثقافة الحية، تحاول أن تسهم في إعادة ضبط الأدوات الثقافية لكل الوافدين إليها، وبصرف النظر عن سوء الفهم الذي حصل بين أم الفتاة والشخص الذي يحمل اسطوانة هندسية، فإن قدرة المكان باتت واضحة جداً عبر فسح المجال أمام المهارات لتطبيق الأثر الهندسي الفاعل ومحاولة تغيير النطاق العمراني للمدينة.

تبقى هذه الفكرة لصيقةً بمدى قدرة المكان على استنهاض واستقطاب القدرات والكفاءات الوافدة، فهو يمارس شكلاً من أشكال التوجيه الثقافي الذي يعطي المستفيد قسطاً كبيراً من التحرر والتأثر لإعادة صناعة الحياة انطلاقاً من الامكانات الخاصة التي تزخر بها الروح الجماعية للإنسان والمكان بصورة عامة.

السلطة الثقافية للمكان:

يحاول المكان بوصفه مكوناً سردياً بارزاً أن يجسد أدواراً متشعبة داخل النص القصصي والروائي بشكل عام، ومن صور هذه الأدوار أن يحقق المكان حيزاً سلطوياً ثقافياً يبرهن على قوة حضوره وقوة أثره في إعادة توجيه الشخصية وإعادة ضبط حركاتها داخل النصوص، ما سيؤثر على الطابع السلوكي للشخصية ومن ثم يؤثر على البنية الثيمية الدلالية التي تدخرها الشخصية في منظومة التوجيه والتعقل الإرادي الفكري.

وسنجد الكثير من الأمكنة المتنوعة في مجموعة عين لندن لفاتح عبدالسلام وهي أماكن تزخر بطالع التغريب، فهذه المجموعة تقدم المكان متكئاً على مفهوم الاغتراب والغربة لهذا فإن التوجيه والتسليط الثقافي والفكري يكون على مستويات عالية جداً، عطفاً على تغير المكان وتجدده من جهة والرهان الذي يعزوه الكاتب على الفاعلية الثقافية للمكان من جهة ثانية، وهنا نحن بصدد أمثلة كثيرة في "عين لندن" نختار منها ما يتناسب مع ما تثيره سلطة النص بأبعادها الثقافية والفكرية، ولعل قصة " مارثون

المسافات القصيرة" تسحب الفكري إلى تخييل سردي يصنع المفارقة الثقافية في المكان ويجعلها واضحة العيان أمام مقاربات مكانية متعددة، عندما تشظت القصة إلى ثلاثة أمكنة رئيسة وهي بغداد وعمان ولندن "وطلبها في الهاتف واستجمع قواه كلها لإقناعها في أن تسافر مع أبيه إلى بلد عربي مجاور، ويلتحق بهما ويراجعون الأطباء هناك، وإذا فشلوا في علاجه لجأوا إلى خيار العلاج في لندن، وكان أمراً سهلاً إقناعها بالمجيء إلى الأردن، وفي غضون أسبوعين التقى الثلاثة في عمان، وتفاجأ إسماعيل بحالة أبيه المتدهورة، ولام نفسه أمام أمه لأنه لم يصغِ إلى كلامها مبكراً وكأن أمه وجدت في إقراره بذنبه فرصةً جديدة لتوبيخه على انشغاله بزوجته الانكليزية ونسيانه والديه" (عبدالسلام، 2011: ص 49، 50)، تشير هذه التأشيرة إلى تحولات مكانية متعددة، وهي الانتقال من بغداد إلى عمان والانتقال من لندن إلى عمان وافتراض الانتقال من عمان إلى لندن، وهذه التنقلات هي بالأساس مفروضة بطابع ثقافي فكري بحت وإن بدا من حيث المبدأ أنه خروج من البلد الأم بحثا عن العلاج وطلباً لتوصيفة دقيقة لوالد إسماعيل، فالعراق غني جداً بالطاقات الطبية والكفاءات والقامات الثقافية، لكنها لم تعد موجودة في العراق وانزاحت وخرجت من هذا البلد وتوزعت في بلدان العالم أجمع، فأينما رحلت وجدت عراقيين يعملون بأقصى درجات الإخلاص والتفاني، فقد كانت المؤسسة الثقافية والسياسية عمياء إلى الدرجة التي دعت إلى التفريط بهم وهي بأمس الحاجة إلى خدماتهم، إن الطب في مدينة عمان والأبعاد الثقافية فيها توحي بوجود مؤسسة ثقافية واعية، لذلك فإن اقتراح عمان كان لدى اسماعيل قبل الكثير من الاقتراحات مثل إيران وسوريا ولبنان وتركيا، فكانت عمان المكان المنتظم ثقافياً، ويتميز بنمو السلطة الثقافية فيه قياساً بالأمكنة الأخرى، عطفاً على عدد اللاجئين العراقيين في هذه المدنية، لذا فإن الطبيب الأردني استطاع عبر أساليبه الثقافية المهنية وبقوة قدرته على الإنصات والتأني في معالجة الحالة أن يصل إلى بؤرة المشكلة ويحقق تقدماً مهماً في تشخيص الحالة الخاصة بأبي إسماعيل، فقد آثر أن يستمع إليه ويترك له مجال الحديث عن حياته الخاصة، فانطلق يتحدث عن ذلك الانفجار الضخم الذي وقع في ضاحية الحي، وكان له أثر نفسي كبير جعل من أبي إسماعيل شخصاً إنطوائياً معزولا عن الجميع، ولم يستطع أحد الوصول إلى علته بسبب الشحة الثقافية والمعرفية التي تعاني منها المؤسسة في العراق ما بعد 2003، لكن بعد تغيير المكان اللجوء إلى مكان جديد متأصل ثقافياً استطاع اسماعيل أن يصل مع أبيه إلى نتيجة مهمة جداً عرفوا فيما بعد أن المشكلة ليست صحية فحسب وإنما المشكلة إنسانية ثقافية فكرية، جرت للعراق الكثير من المشاكل والمصاعب التي قلبت البلد إلى جحيم.

المبحث الثاني

المكان وثقافة الاستبعاد

تبقى للمكان خصوصية مطلقة بالمقارنة مع المكونات السردية الأخرى التي تتفاعل فيما بينها، وتبقى العلاقة المطردة بين الشخصية من جهة والمكان من جهة ثانية هي أوضح العلاقات التي تحكم مكونات السرد القصصي والروائي والأدبي بشكل عام، ولما كنا بصدد المعرفة الأثر الذي تركته دالة المكان في الشخصية وحاولت أن تجسد دورها الثقافي في صناعة التحول الثقافي للشخصية ومحاولة إذابة عنصر التفرد الشخصي المتمثل في المكان، لكن للمكان أبعاداً سلوكيةً خفية أخرى تحاول عبرها الثقافة أن تجسد السلطة الثقافية للمكان، عندها ستكون المواجهة بين الامتداد المرجعي الثقافي للشخصية والامتداد المرجعي الثقافي للمكان، وسرعان ما تتأهب الأبعاد المكانية التي تقوض وجود الشخصية وقزم من حجمها وتحاول دفعها إلى مستوياتٍ سياقية بعيدة تتعلق بأمكنة أخرى.

فالشخصية في هذا المجال تحكم نفسها بانتظام أحادي دوغمائي منفرد بعيداً عن الأنظمة الجمعية الباختينية، فلو أننا استطعنا إدراج ثيمة الشخصية في بنية المكان الدلالية لأصبح ثمة ما يعرف بتعدد الأصوات والسياقات الفكرية والدلالية، فمن "المعروف والمستقر نقدياً في أدبيات ما بعد الحداثة أن الفكر الواحدي أو الوحيد أو المفرد، أو المنفرد جرى ترحيله إلى مراحل ما قبل الحداثة، ومراحل الحداثة بعد أفول مفهوم الأحادية في مفاصل الثقافة المتعددة، تاريخ فلسفة، اجتماع، سياسة، ألخ وسيادة النظم الديمقراطية أو الحوارية (بالمعنى الباختيني) ولكن المتغير النقدي الذي اعتلى منصة النقد الثقافي هو في مفهوم القراءة المتعددة، والمختلفة، والمشككة، والمتحولة، وغيرها، من المترادفات المفهومية ، فقد امتلك بعداً إجرائياً واقعياً في النقد الثقافي بعد أن قطع مراحل طويلة في الفكر النظري أو التنظري" (صالح، 2012: ص14)، لذلك فإن هذا التيار الشخصي سينحاز إلى رجعية الصوت المنفرد الذي يرفض التداخل والتنوع مع الأصوات الأخرى داخل بنية الخطاب القصصي للقاص والروائي فاتح عبد السلام.

وثمة أمثلة كثيرة تحاول أن تجذر تقلص المكان بأبعاده الثقافية والإنسانية ما جاء في قصة "لحظة الاستنساخ البشري" عندما فشل المكان البارد بأبعاد الاغتراب والتشرد في تحقيق الدفء النفسي والاجتماعي للشخصية، فهو يعالج ثقافياً إثارات عميقة في نفس الشخصية ويحاول أن يؤسسها بأنماط استرجاعية تشتغل ضد حركة الانسان المغادر للمكان "بالكاد عاد وجهه للظهور مرة

أخرى، حتى قطعت المشهد كله حافلة عالية حمراء لنقل الركاب، أقلقني بطؤها فهي تحجب مقطعاً عريضا من الرصيف المقابل بحجمها الضخم، خشيت أن أفقده إن تحرك من المكان وضاع بين المارة، قبل أن تنزاح الحافلة الطويلة من أمام عينيّ، وندمت في لحظة على وقت ما كان علي أن أبدده في استغراقي في شريط ذاكرتي، وعدم عبوري إليه، وعناقه واستعادة دفقة من حرارة تلك الأيام، كم حزنت على احتمال أن تكون فرصتي التي نبتت في هذا المكان غير المتوقع ضاعت وخسرت إلى الأبد هذا اللقاء النادر والمفاجئ الذي ربما كان ضحية ذاكرتي القوية الشرسة"(عبدالسلام، 2011: ص69)، لو تتبعنا قراءة هذا النص بشكل دقيق لوجدناه يركز كثيرا على ثيمة المكان بوصفها دالة معنوية تنفرد بإعادة توجيه الوعي لدى الشخصية وهي بطبيعة الحال تسهم في فك الارتباط بين المكان الحاضن المهاجر إليه وبين المغترب، فالذاكرة تتأسس على جملة من السلوكيات النفسية والاجتماعية الذاتية الخاصة، وهي مؤشراتٍ تشترك في تحويل الأبعاد الثقافية من حالة الطوارئ إلى حالة الأصل، لذا فإن من المهم التأكيد على تجسيد الماضي بكل صوره الخاصة والطاعنة في القدم لأنها ستطفو وتظهر على بنية المقال في التصادمات الذاتية والاستثارات العامة.

كما أن في قصة "حديقة عباس في ساوث هوت" ما يمثل هذا الاتجاه من الأمثلة التي تصنع الفرادة السلطوية للمكان عندما يتقاطع المكان ثقافياً وسلوكياً مع ما تقدمه الشخصية من سلوكيات بوصفها شخصية مغتربة وتعبأ بمحمولات ومرجعيات ثقافية وفكرية متعددة، فهذا أبو عباسّ المرتكز على نمط مرجعي فكري خاص يتراوح بين الطابع البسيط والنزعة الفلاحية التي تؤمن بفلسفة إحياء الأرض من إحياء الحياة، لكنه سيجد نفسه محاطاً بتيار ثقافي فكري مكاني يحاول أن يقوض تلك الأفكار والأبنية الفكرية الخاصة التي تتعلق بتركيب الشخصية وحركتها داخل متوالية الأحداث:

"– انظري هذا هو أبوه كان وصل إلى لندن اليوم فجرا:

ردت اليزابيث على زوجها:

– لا أظن ذلك، هل يعقل أنه وصل لتوّه، ألا تراه كيف يحرث أرض الحديقة؟

أسدلت ستارة نافذتها وعادت إلى زوجها مستدركة:

– ثم من الذي أعلمك أنه أبوه؟

- هو نفسه قبل يومين أخبرني أن أباه سيأتي من بلده إلى هنا

- تحدث أمور غريبة هنا، قلت لك مراراً لعلنا آخر انكليزيين في هذا الحي الهندي"(عبدالسلام، 2011: ص85)، ينتقل أبو عباس من مكانٍ إلى آخر لكنه لم ينتقل منفرداً منعزلاً عن ذاته التي تراكمت معرفياً وثقافياً في المكان الأول، فها هو يهم بحرث الحديقة وممارسة السلوك الزراعي بوصفه ثقافة إنسان اعتاد على التعامل مع الأرض بانضباط وحزم.

إن أبا عباس مرغم على التأقلم مع ما يحمله من أفكار، انتقل بها من البصرة إلى لندن، فهو يحاول أن يطبق ثقافة شرقية بحتة في أرض صناعية بحتة، وهذا يعد نقلا حرفياً للأطر الثقافية التي تنتقل من مكان إلى آخر مع تنقل الإنسان نفسه، لكن المكان (لندن) لن يتغاضى عن إحاطة هذا السلوك الثقافي النافر بل سيحاول أن يبتلعه بنزعة ثقافية مضادة ستقوض دور الشخصية وتجعلها تراوح في إطار مرجعي ضيق، عندما ألزم أبا عباس في اتباع الإجراء لكن بالتنسيق مع المؤسسة الزراعية للدولة "أقصد القصر الملكي يطلب إجابتك الواضحة فيما إذا كان من الضروري أن يحرث الإنسان بنفسه أرضه لكي تتبارك وتتحقق أقرب الأمنيات إلى نفسه أم أن إنابة أحد بالحراثة يفي بالغرض، أنت تعلم أن الحراثة ليست سهلة، وكلما كانت أعمق وأوسع في الأرض حسب ما تقوله على موقعك الالكتروني فإن تحقيق الأمنية سيكون أسرع"(عبدالسلام، 2011: ص94)، نلحظ عبر هذا النص أن للمكان ثقافة تحاول أن تقوض الإنسان الغريب وتصعّد من النسق المضاد باتجاهه، فضلاً عن قوى التصعيد التي تشمل هدم المرجعيات الثقافية للشخصية عندما تتداخل مع البنى التركيبية للمكان الجديد، إن إسناد الزراعة إلى المؤسسة بوصفها ثقافة عامة، يعطي انطباعاً واضحاً على آلية القضية وابتعادها عن السلوك الإنساني الفردي كما هو الحال مع البلدان الشرقية التي تغذي الثقافة الزراعية على مستوى الفرد، ليكون التعويل عليه كبيراً في إصلاح الأرض والحياة بدلا من تدخل المؤسسة والدولة، لذا فإن أبا عباس كان في هذه اللحظة نتيجة هذا السلوك الفطري الثقافي (حراثة الأرض) محطَّ اتهام بدلا من كونه محط اهتمام.

يفاجئ فاتح عبدالسلام القارئ في نهاية هذه القصة عندما يحيل القصة إلى خيال ورماد وحلم، فعباس يختتم نهاية قصته بتوظيف الصدمة والمفاجأة عندما يرتكن إلى بناء الأحداث بشكل هرمي ليصل في النهاية إلى تخييل غير واقعي، لا يمثل شيئاً من واقعه الملموس، فحتى ذلك السلوك الثقافي الفريد الذي كان أبو عباس يتغلب عبره على غربة المكان والإنسان معاً لم يعد

سلوكاً حقيقياً إنما هو جزء من عالم الحلم الذي يحياه عباس، فأبوه شخصية فلاحية عاشت وماتت في مدينة البصرة العراقية، لكن عباس ظل طوال الوقت يحن ويمني نفسه بتلك التفاصيل الحية التي تركها منذ عشرات السنين في أرض السواد التي تصنع فرادة الإنسان وتبرهن على قدرة هذا الإنسان في إحياء الأرض وإحياء الحياة من جديد.

الاغتراب الثقافي:

إن التلاعب بفيزيقية المكان أو التدخل بالعلاقة الجدلية بين المكان والإنسان أو محاولة إخضاع الإنسان لتجربة مكانية جديد سيقود ذلك جميعاً إلى فتح المجال أمام افتراضات متعددة، لعل من أكثرها خطورةً هو أن تصل الشخصية إلى الاغتراب الثقافي أو الفكري الذي لا يتيح للشخصية التواصل مع الأمكنة الجديدة التي تتأسس في الأنماط الحياتية الجديدة، ويؤثر بشكل مباشر على البنية الروائية ويضبط أدوات اشتغالها وحدودها ومفاهيمها (ينظر: برادة، 1996: ص 58)، لذا فإن التراجع والابتعاد والعزل والاكتئاب والتردد كلها أمور تأتي نتيجة حتمية للاغتراب الثقافي الذي تعيشه الشخصية داخل بنية المكان دونما أي إرادة وأي توافق.

ويقود التغريب المكاني إلى صناعة خصوصية المكان في القصة عبر تفعيل الأنماط الثقافية المضادة لمرجعيات الشخصية و"للمكان دور مهم في القصة، لأن الأعمال الحكائية عامةً حيوات شخصيات في أمكنة تحاكي الواقع، أو تفترضه، فالمكان فيها يكون أس العمل وأساسه الرصين"(الشيخ عبوش، 2019:ص 66)، بينما نجد الاغتراب الثقافي سياقا فكريا حادا يقود إلى تضارب أيديولوجي تكويني بين ما تصبو إليه الشخصية وما هو متاح أمامها، ويأتي نتيجة للحنين أو التذكر للأمكنة التأسيسية الأولى، ولعل الاهتمامات الأولى للدارسين في كل المجالات بالاغتراب بشكل عام عرفته على أنه "ظاهرة إنسانية متعددة الأبعاد، تزداد حدته ومجال انتشاره كلما توفرت العوامل والاسباب المهيئة للشعور بالاغتراب نفسياً واجتماعياً ووجودياً"(النصير، 2012:ص 48)، وقد عَرف العرب القدامى الاغتراب، إذ عرفه أبو حيان التوحيدي " فأين أنت من غريب قد طالت غربته في وطنه، وقل حظه ونصيب سكنه؟ وأين انت من غريب لا سبيل له إلى الأوطان ولا طاقة به إلى الاستيطان"(التوحيدي، 1973:

ص113)، إذ يصبح الاغتراب وفق هذا التعريف شعور إنساني يجعل الفرد في حالة من الانفصال عن الذات والآخرين، وهو يرتبط بالحالة العامة للشخصية والظروف المحيطة بها.

كما أن الاغتراب هو مشكلة مكان قبل أي شيء، فعندما تتلاشى الفرص والحلول الحياتية أمام الشخصية ستضطر اللجوء إلى أماكنَ أخرى ربما بدافع الخوف أو الرهبة او البحث عن الذات أو البحث عن مصادر الحياة المتنوعة، لكن الشخصية ستأتي محملة بأطر وثقافات ومراجع كثيرة تحملها بين طياتها فهي تغترب إذن بكل سياقاتها ومرجعياتها الفكرية والسياقية.

تحاول الشخصية أن تقيم علاقة مطردة مع المكان " فالشخصية إما أن تتجاوب مع المكان المعادي تجاوباً سطحياً، لا تصل إلى العمق، أو أن تقيم في المكان المعادي إقامةً مؤقتة لحين التخلص من عدوانيته"(عبوش، 2014:ص 106)، وعلى هذا الأساس تحاول مغالق المكان اللندني أن تفسر كمية التنافر الواقع بين الشخصية من جهة وحدود المكان من جهة أخرى، فالمكان هنا يعيق سلطة النزوع إلى باطن الشخصية وتحقيق الأثر الخاص، لأنه مكان غير متحقق وطارئ، لهذا فإن الشخصية حاولت مباشرةً اللجوء نفسياً إلى مكان قديم متجذر في الذاكرة لأنه متحقق بكل السلوكيات والأساليب الحياتية التي بنت الشخصية وأسستها التأسيس الفكري الصحيح، ومن الضروري بهذا الصدد التحقق من برودة المكان وهنا لا يقصد ببرودة الجو قدر الحديث عن عدم فاعلية المكان في استنهاض القيم الثقافية ومحاولة زج الشخصية بالواقع المعاش على مختلف الأصعدة، وإنما عهدت الشخصية إلى البحث عن مسامات المتبقي الخاص لتتنفس وتتنفذ عبرها وتراجع حتمية التحقق والتأنق الذاتي وتسهم في تعزيز فرضية التواثق والتطابق بين الشخصية والمكان عبر الأطر والمراجع الثقافية والفكرية العامة، لكن ليس المكان الطارئ النيئ إنما المكان المختمر في قارورة الفكر والذاكرة والمتمثل في خواص الماضي المثار.

ومن الأمثلة المهمة التي تزخر بها الأماكن المعبأة ثقافياً في إطار الاستبعاد والارتداد، ما جاء في قصة "جنية الساعة الحادية عشرة" فالمكان اللندني الخالص المرتكز على سمات بنائية محددة والمكون ثقافياً واجتماعياً ونفسياً من مشارب ومنطلقات إنسانية متباينة يسوق لهذه الشخصيات أطواراً كثيفة من التحايل على تعزيز قدرتها على استدعاء صور الماضي ومحاولة تجزئة الحاضر دلالياً وفكرياً في سبيل إعادة ضبط ارتكازه وإعادة التوازن الأنثروبولوجي للمكان والمحيط الخارجي "حين خرج الرجل الكاريبي من منزلي كنت أعرف أنه لم يكن مستمتعاً بالحديث معي، وبدت كلماتي له في غير محلها وكان القلق واضحاً في عينه وهو يودعني مغادراً قلت في نفسي وعيناي تستقصيان أثر المرأة العجوز عبر النافذة، وقد تحولت زخات المطر إلى نثيث هادئ:

–مسكين لا يدري أي ضيف حاضر في بيته لكن كيف لي أن أشرح له ما يحدث ولو فعلت لا تهمني بالجنون

كنت مقتنعاً بأن المكان المنعزل لمنزل الرجل الكاريبي في آخر ذلك الشارع المغلق أغرى تلك الجنية بالمداومة على المجيء المنتظم إليه، ولكن ملابسها الرجالية كانت تحفر في نفسي سؤالا لا أعرف له جواباً أهو تتكر أم حلول مشترك بين جسدي رجل وامرأة"(عبدالسلام، 2011: ص103، 104)، لو تتبعنا قراءة هذا النص وحاولنا مقاربة حدوده الفنية والدلالية لوجدناه نصاً يرتكز على جملة من السياقات التي تتعلق بفك الارتباط بين الشخصية والمكان، والتي تؤكد على ضرورة تعزيز خصوصية المكان ومحاولة إضفاء دلالة ذاتية له عبر الأبعاد الثقافية العامة.

إن هذا النص يشي بالكثير من التفاصيل التي تضفي على المكان مسحة الرهبة والخوف لذلك ترك السارد سمة التسمية ودلج إلى سمة التوصيف فقال (الرجل الكاريبي) محاولاً التأكيد على الغموض والإبهام التي تعطي المكان خصوصية العزل النفسي والذاتي، فضلا عن ذلك فإن توصيف (الجنية)، يعزز قدرة المكان على تصفية الاشتراك النسقي والسياقي مع بقية المكونات السردية ويحاول أن يطلق وجهه الآخر المفضي إلى الثقافة الطاردة الفاعلة في المكان، فالمكان هنا يمثل الغربة الجغرافية والنفسية في الوقت نفسه، فضلا عن تمثيله الغربة الروحية التي لم تجد الشخصية أية صورة من صور الانحياز المكاني للشخصية، لتبقى عزلة الإنسان على أوجها هنا لأنها تمثل القطيعة بكل تفاصيلها فلم يكن يستطيع التواصل مع أقرانه بل إنه اضطر للتعامل مع الأشباح والأرواح الشريرة مثل الجنية والرجل الكاريبي غامض التفاصيل، لذلك نجد هذا المكان يتجه نحو تسريدٍ ذاتي متجه نحو تخليص الشخصية من كل تبعات الغربة ومحاولة زجها وإرجاعها إلى محيطها الأولي الذي انطلقت منه واستطاعت تكوين أبعادها الاجتماعية والنفسية والفكرية.

الخاتمة:

تحاول هذه المقاربة البحثية التي تناولت مجموعة (عين لندن) للكاتب والقاص والروائي العراقي فاتح عبدالسلام تحت عنوان (فاعلية المكان الثقافي في قصص فاتح عبدالسلام "عين لندن أنموذجاً") أن تثير القدرات الفعلية الملتصقة بالمكان بوصفه بؤرةً دلالية ثقافية مركزية، فقد امتازت الفاعلية الثقافية للمكان في هذه المجموعة بالتنوع والتشظي إلى أبعاد أثبتت أثرها الفاعل

على بقية المكونات السردية والقصصية مثل الشخصية والزمن والحدث، وحتى أثرت في التزام العمل بأنماط تقانية محددة تم توظيفها لتختزل التجربة القصصية بكل تفاصيلها وكل تجلياتها ومحمولاتها الفكرية.

إن القدرة الاختزالية الثقافية للكاتب كانت عالية جداً إلى الدرجة التي جعلته يصنع نوعاً من التسريد الثقافي السيري للشخصيات عبر انغماسها بورطة المكان منذ النشأة إلى المنفى، فقد انقسمت الشخصيات في قصصه المتعددة من هذه المجموعة على نمطين رئيسين، النمط الأول لم يتمكن من تحقيق خصوصيته المتصادمة مع المكان الذي علت سطوته الثقافية واستطاعت السيطرة على مخرجات التفكير الثقافي والإنساني، لتخضع الشخصيات إلى نوع من التحول الثقافي القيمي المرجعي الذي يمثل مراحل التأثير والتأثر بين المكونين الرئيسين، لتصبح الشخصية فيما بعد جزءاً مركباً من المكان المهاجر إليه، ويرجع ذلك إلى الفاعلية الثقافية والسياقية له والتي تمكنت من التغلب على المحمولات الثقافية والمرجعية الخاصة التي استقدمتها الشخصية من محاور مكانية متعددة.

أماّ النمط الثاني فهو متمثل في تيار خاص من الشخصيات الدوغمائية الأحادية التي لم تستطع التفاعل مع الأبنية الثقافية للمكان الجديد، بل إنها جنحت فيما بعد إلى ما يعرف بالاغتراب النفسي والثقافي الذي كان نتيجة التخنث الثقافي للمكان، فقد فشلت المنظومة المكانية من التسلل إلى العمق الفكري والثقافي للشخصية، لأنها قوبلت بتجرد فكري كبير أدى إلى انعزال الشخصية واتخاذها تجربة ثقافية خاصة، ليكون الاغتراب ثم العودة إلى مربع المركز الثقافي المكاني الأول بوصفه إطاراً مرجعياً مهماً لا يمكن تخليده في غير الأماكن المحددة له.

وتبقى هذه المجموعة ذات الأمكنة المتشعبة في الفضاء الأوروبي لا سيما لندن ومدن إنكليزية وأوروبية أخر تمثل نماذج حيةً يمكن عبرها تعقب الكثير من الشخصيات التي تتلون في درجة التفاعل الثقافي مع تلك الأمكنة في أماكن يهاجر إليها العرب وغيرهم من أماكن مختلفة من العالم وفي النهاية يتأزم الموقف الثقافي العام، لتتجسد هناك الفاعلية الثقافية للمكان عبر العلاقة الجدلية التي تجمعها بالشخصيات المهاجرة على وجه التحديد.

Sources and references:

- The Novel's Questions, Questions of Criticism, Muhammad Barrada, Casablanca, First Edition, Al-Maarab, [1996].
- The Divine Signs, Abu Hayyan Al-Tawhidi, edited by Abdul Rahman Badawi, Dar Al Thaqafa, Beirut [1973]
- The Problem of Place in the Literary Text, Yassin Al-Naseer, House of General Cultural Affairs, Baghdad, First Edition, [1986].
- Alienation in Ahmad Matar's Poetry, Moataz Qusay Yassin, Basra Studies Journal, Seventh Year, No. 14,[2012].
- Production of Place between Vision, Structure and Significance, Muhammad Al-Asadi, House of General Cultural Affairs, Baghdad, First Edition, [2013].
- Boytika al-Thaqafa "Towards a poetic theory in cultural criticism", Bushra Musa Saleh, House of General Cultural Affairs, Baghdad, first edition, [2012].
- Narration and prophecy of the place, Jaafar Ahmad Aboush, Ghaidaa House for Publishing and Distribution, First Edition, Amman, [2014].
- Place and the plight of hegemony, "Approaches to Selected Models", Jaafar Sheikh Aboush, Mashki House for Printing, Publishing and Distribution, Mosul, [2019].
- London Eye, Fateh Abdel Salam, Arab Science Publishers, First Edition, Beirut, [2011].
- Reader of the Text and the Sign, Siza Kassem, Publications of the Supreme Council of Culture, Cairo, [2002].

- Issues of the Novel Place in Contemporary Literature, Salah Salah, Dar Al Sharqiyyat for Publishing and Distribution, Cairo, Fourth Edition, [1998].
- The Place Problem, Yuri Lutman, translated by Cisa Kassem, Casablanca, Morocco, second edition, [1988].